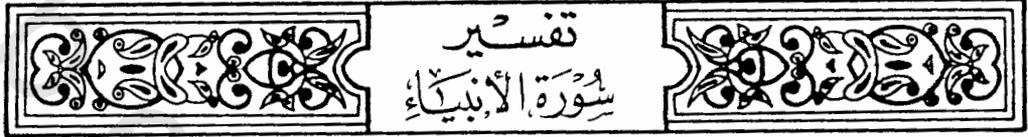


﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (١٢٥)

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن كذبتك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلُّ مُرْتَبِعٍ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي فانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ إلى الحق، وسبيل الرشاد، وهذا كقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 42].



في البخاري عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق وهن من تلاميذ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١)

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وإن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها. نزل ضيف بعامر بن ربيعة فأكرم عامر مشواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١).

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢)

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ أي جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

﴿لَا هَيْبَةَ قُلُوبِهِمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ

وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ (٣)

﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ، يستبعدون كونه نبياً، لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم، ولهذا قال ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر، وهو يعلم أنه سحر.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٤٤﴾

قال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ

الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار والحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿الإسراء: 48﴾ وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ يعنون كناية صالح، وآيات موسى وعيسى، وقد قال الله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿الإسراء: 59﴾.

﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

ولهذا قال تعالى: ﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات، والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى رداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة ﴿فَتَسَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي استلوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى، وسائر الطوائف، هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة، وإنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه، إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم، والأخذ عنهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ﴿الفرقان: 20﴾ أي قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضرار لهم، ولا ناقص منهم شيئاً ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي في الدنيا، بل كانوا يعيشون ويموتون.

﴿ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَجْنَبْنَهُمْ مِمَّنْ شَاءَ وَاهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين ﴿فَأَجْنَبْنَهُمْ وَمِمَّنْ شَاءَ﴾ أي أتباعهم من المؤمنين ﴿وَاهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فيه شرفكم، أو حديثكم، أو دينكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي هذه النعمة وتلقونها بالقبول.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هذه صيغة تكثير كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 17] ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي أمة أخرى بعدهم.

﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّكُمْ بَاسُونَ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّكُمْ بَاسُونَ﴾ أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبينهم ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي يفرون هاربين.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ﴾ هذا تهكم بهم، أي لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم.

﴿قَالُوا يَا بُولَلَاءَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قَالُوا يَا بُولَلَاءَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ أي ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم، وأصواتهم خموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي بالعدل والقسط، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وإنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿١٧﴾﴾ [ص: 27].

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ يعني من عندنا، اللهو هنا المرأة، أو الولد ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي ما كنا فاعلين. قال مجاهد: كل شيء في القرآن ﴿إِنْ﴾ فهو إنكار.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾
 ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهب مضمحل ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أيها القائلون لله ولد ﴿مِمَّا نَصِفُونَ﴾ أي تقولون وتفترون.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾
 ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً فقال ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي لا يستنكفون عنها، كما قال ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمُ إِلَهِهَ جَمِيعًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: 172] وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون.

﴿يَسْتَحْسِرُونَ آتِلٌ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿يَسْتَحْسِرُونَ آتِلٌ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] روى ابن أبي حاتم عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ «إني لأسمع أطيظ السماء، وما تلام أن تنطق، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم» غريب ولم يخرجوه.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي أهم يحيون الموتى، وينشرونهم من الأرض؟ أي لا يقدر على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً، وعبدها معه؟

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السماوات والأرض فقال ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ﴾ أي في السماوات والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّثُوا فِي الْعَرْشِ عَشْرًا كَانَتْ مِنْهُمْ إِلهٌ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّثُوا فِي الْعَرْشِ عَشْرًا كَانَتْ مِنْهُمْ إِلهٌ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: 91] وقال

ههنا ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يقولون إن له ولداً، أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون، علواً كبيراً.

﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ (٢٣)

﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله، وكبريائه وعلمه، وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ أي وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهِنَّ أجمعين﴾ (٢٤) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٣) [الحجر: 92، 93].

﴿أمر آتخذوا من دونه﴾ = ءالهة قل هاتوا برهنكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ (٢٤)

يقول تعالى: ﴿أمر آتخذوا من دونه﴾ = ءالهة قل يا محمد ﴿هاتوا برهنكم﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هذا ذكر من معي﴾ يعني القرآن ﴿وذكر من قبلي﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمونه، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه.

﴿ومما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون﴾ (٢٥)

ولهذا قال ﴿ومما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون﴾ (٢٥) فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحببتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ (٢٦)

يقول تعالى رداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولد من الملائكة كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال ﴿سبحنهم بل عباد مكرمون﴾ أي الملائكة عباد الله، مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً.

﴿لا يسئفونهم بالقول وهم يأمره يعلمون﴾ (٢٧)

﴿لا يسئفونهم بالقول وهم يأمره يعلمون﴾ أي لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليهم منه خافية.

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ (٢٨)

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ وقوله: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ كقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه﴾ [البقرة: 255] وقوله: ﴿وهم من خشيته﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿مشفقون﴾.

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّتِ إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾
 ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّتِ إِلَهُ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أي مع الله ﴿ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي كل من قال ذلك.

﴿ أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات فقال ﴿ أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي الجاحدون لإلهيته، العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره، أو يشرك به ما سواه؟ ألم يروا ﴿ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا ﴾ أي كان الجميع متصلًا ببعضه ببعض، متلاصقًا متراكمًا بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه فجعل السماوات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأنبئت الأرض، ولهذا قال ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أفلا يؤمنون أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أي أصل كل الأحياء ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾
 ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي جبلاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس، أي تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها، ولهذا قال ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي لئلا تميد بهم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ أي على الأرض، وهي كالقبة عليها، كما قال ﴿ وَالسَّمَاءَ بَيْنَهَا يَاتِبِدُ وَإِنَّا لَنُوسِعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات: 47] وقال ﴿ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَلَّهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الشمس: 5] والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس» ﴿ مَحْفُوظًا ﴾ أي عالياً محروساً أن ينال، أو مرفوعاً. ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ كقوله: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف: 105] أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢٣)

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه. وهذا بضياته وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ هذه لها نور يخصصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ عن ابن عباس أي يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْحُدَّ أَفَائِنَ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٢٤)

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿أَلْحُدَّ﴾ أي في الدنيا، بل ﴿كُلٌّ مِنْ عَتِيَا فَإِنَّ﴾ (٢٤) ﴿وَبَعَثْنَا وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: 26، 27) وقد استدلت بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات، وليس بحي إلى الآن، لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقوله: ﴿أَفَائِنَ مَتَّ﴾ أي يا محمد ﴿فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك؟ لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٥)

ولهذا قال ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾

﴿وَهُمْ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ (٢٦)

يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي يستهزئون بك، ويتقصونك، يقولون ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعنون: أهذا الذي يسب آلهتكم، ويسفه أحلامكم؟ قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي وهم كفرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ (٢٧)

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11] أي في الأمور. والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منه، لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكديباً ووجوداً، وكفراً وعناداً، واستبعاداً، فقال ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨).

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٩)

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ...﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم، لا محالة لما استعجلوا ولو يعلمون حين يشاهم العذاب هم فوقهم ومن تحت أرجلهم، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا ناصر لهم.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٤٠)

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي تأتيهم النار فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي تدعهم فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١)

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١) يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرًا وَلَا مُبَدِّلَ كَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٢) [الأنعام: 34].

﴿قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤٢)

ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام فقال ﴿قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي بدل الرحمن، يعني غيره ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم، وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه.

﴿أَرَأَيْتُمْ ءَالِهَةً تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (٤٣)

﴿أَرَأَيْتُمْ ءَالِهَةً تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتوبيخ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلوهم غيرنا؟ أي الأمر كما توهموا، لا، ولا كما زعموا، ولهذا قال ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي يجارون، أو لا يصحبون من الله بخير، أو ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي يمنعون.

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الاحقاف: 27] قال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة، والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخرسون الأخذلون.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال ﴿وَلَا يَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ...﴾ أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفون بذنوبهم وإنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظَلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَوَجَّهْنَا مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤١﴾ [النساء: 40] وقال لقمان لابنه: ﴿يَسْتَجِئُهَا إِنْ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٦﴾ [لقمان: 16] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحانه الله، وبحمده سبحانه الله العظيم».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُنْتَفِيكِ ﴿٤٨﴾﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، ولهذا قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ يعني الكتاب، أي التوراة؛ حلالاتها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل، ولهذا قال ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُنْتَفِيكِ﴾ أي تذكير لهم وعظة.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ كقوله: ﴿مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبِ نُبِيِّ ﴿٤٩﴾﴾ [ق: 33] ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون وجلون.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي أفتنكرونه، وهو في غاية الجلاء والظهور.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83] ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي وكان أهلاً لذلك.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل فقال ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي معتكفون على عبادتها. روى ابن أبي حاتم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر على قوم يلعبون بالشطرنج فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ؟﴾ لأن يمس أحدكم جراً حتى يطفأ خير له من أن يمسه.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أي لم يكن لهم حجة إلا صنيع آبائهم الضلال.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم.

﴿قَالُوا أَحِثَّنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّعِينِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فلما سفه أحلامهم، واحترق آهتهم ﴿قَالُوا أَحِثَّنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّعِينِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك بقوله لآعباً أو محققاً فيه؟ فإننا لم نسمع به قبلك.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السماوات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتداء خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَتَأَلَّه لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِبِينَ ﴿٥٧﴾﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرضن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أي إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه. قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم فجعلوا يمررون عليه، وهو صريع، فيقولون: مه، فيقول: إني سقيم، فلما جاوز عامتهم، وبقي ضعفاؤهم قال ﴿وَتَأَلَّه لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فسمعه أولئك.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ أي حطاماً، كسرها كلها إلا كبيراً لهم، يعني إلا الصنم الكبير عندهم كما قال ﴿رَفَعَ عَلَيْهِمْ صَرًا بِأَلْيَيْنَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصفوات: 93] وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِإِلٰهِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِإِلٰهِنَا﴾ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي في صنيعه هذا.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

أي قال من سمعه يحلف ليكيدنهم ﴿سَمِعْنَا فَتَىٰ﴾ أي شاباً ﴿يَذُكُرُهُمْ﴾ ﴿يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتي العلم عالم إلا هو شاب، وتلا هذه الآية.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ آعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ﴿٦١﴾

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ آعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي على رؤوس الأشهاد في الملاء الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرراً، ولا تملك لها نصراً فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟

﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَسْتُلُوهُمْ إِنْ

كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعني الذي تركه لم يكسره ﴿فَتَسْتُلُوهُمْ إِنْ كَانَوا يَنْطِقُونَ﴾ وإنما أراد من هذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفحات: 89]، قال: وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة، ومعه سارة إذ نزلا منزلاً، فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك، معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: اختي، قال فاذهب، فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة، فقال إن هذا الجبار قد سألتني عنك. فأخبرته أنك اختي فلا تكذبيني عنده، فإنك اختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله ولي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها، فتناولها فأخذ بمثلها، أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليتين، فقال: ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابها فقال: إنك لم تأت بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطيتها هاجر، فأخرجت، وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال: مهيم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمني هاجر.

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحرصاتهم لألهتهم، فقالوا ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها.

﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾

﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦)

فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لِمَا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أَي إِذَا كَانَتْ لَا تَنْطِقُ، وَهِيَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِن دُونِ اللَّهِ؟

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧)

أَي أَفَلَا تَتَدَبَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكَفْرِ الْغَلِيظِ الَّذِي لَا يَرْجُو إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ ظَالِمٍ فَاجِرٍ، فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَالزَّمِيمَ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83].

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨)

لِمَا دَحَضَتْ حُجَّتَهُمْ، وَبَانَ عِزُّهُمْ، وَظَهَرَ الْحَقُّ، وَانْدَفَعَ الْبَاطِلَ عَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِ مُلْكِهِمْ، فَقَالُوا ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فَجَمَعُوا حَطْبًا كَثِيرًا جَدًّا، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي حُومَةٍ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَضْرَمُوا نَارًا فَكَانَ لَهَا شَرٌّ عَظِيمٌ، وَلَهَبٌ مُّرْتَفِعٌ، لَمْ تَوْقِدْ نَارٌ قَطُّ مِثْلَهَا، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِفَّةِ الْمُنْجِنِيقِ فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أَلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩)

﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: لَا تَضُرِّي بِهِ.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠)

أَي الْمَغْلُوبِينَ الْأَسْفَلِينَ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ كَيْدًا فَكَادَهُمُ اللَّهُ وَنَجَاهُ مِنَ النَّارِ فَغَلَبُوا هُنَالِكَ.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ نَارِ قَوْمِهِ وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُهَاجِرًا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْهَا ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢)

﴿نَافِلَةً﴾ عَطِيَّةٌ، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أَي الْجَمِيعَ أَهْلِ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ (٧٢)

﴿أَيْمَةً﴾ أي يقتدى بهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعون إلى الله بإذنه ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ أي فاعلين لما يأمرون الناس به .

﴿وَلَوْطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَوَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقُرْبَىٰ أَلَىٰ كَأَن تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٧٤) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

ثم عطف بذكر لوط عليه السلام ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام ، واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى : ﴿فَتَأَمَّنَ لَمَّ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: 26] فاتاه الله حكماً وعلماً ، وأوحى إليه وجعله نبياً ، يبعثه إلى سدوم وأعمالها فخالفوه وكذبوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ، ولهذا قال ﴿وَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقُرْبَىٰ أَلَىٰ كَأَن تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٧٤) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) .

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦)

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10] ولهذا قال هنا ﴿إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي الذين آمنوا به ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ، ويتواصون قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل على خلافه .

﴿وَنَصْرَتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٧)

﴿وَنَصْرَتَهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي ونجيبناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهلكهم الله بعامه ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم .

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩)

﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ﴾ النفس لا يكون إلا بالليل ، والهمل بالنهار ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ عن ابن عباس قال قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب ، فقال لهم سليمان :

كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا، فأخبر بذلك داود فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم لصاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذه أصحاب الحرث، وردوا الغنم إلى أصحابها. ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً فوقف واستمع لقراءته وقال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود» قال يا رسول الله، لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعني صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّمْنَا لَهُ أَنْ الْحَدِيدَ أَعْمَلُ سَبْعَتِ وَقَدِيرٍ فِي السَّرْدِ﴾ [سبا: 10، 11] أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة، ولهذا قال ﴿لِنُحِصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعني في القتال ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلمه ذلك من أجلكم.

﴿وَلَسَلِّمَنَّ الَّرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١)

﴿وَلَسَلِّمَنَّ الَّرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي وسخر لسليمان الريح العاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله فترفعه، وتسير به وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض فينزل، وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الَّرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: 36] وقال تعالى: ﴿عَذُوبَهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: 12].

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوضُونَ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (٨٢)

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوضُونَ لَهُمْ﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ [ص: 37، 38] وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته، وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه، والقرب منه، بل هو يحكم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال ﴿وَأَخْرَجَ مَقْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: 38].

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعِندَنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحراث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل» وفي الحديث الآخر «يتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك. ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ أوتي أجرهم في الآخرة، وأعطى مثلهم في الدنيا، وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِنَّا وَعِندَنَا ﴾ أي فعلناه به ذلك رحمة من الله هـ ﴿ وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوة لثلاثين أمة البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهما عونا، ولتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وأما اسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس عليه السلام، وأما ذو الكفل فالظاهر أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً.

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

هذه لقصة مذكورة ههنا وفي سورة الصافات وفي سورة ن، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى» وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم، وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادهما، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، ورجت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادهما، وثغت الغنم وسخالها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الّٰخِرِي فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنٰهُمُ اِلٰى حِيٰنٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس: 98] وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم، وخافوا

أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفون منه فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿سَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: 141] أي وقعت عليه القرعة، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه من البحر حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجنًا، وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ يعني الحوت ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا﴾ أي لقومه ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت، أو نقضي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر وظلمة الليل.

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد، ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء، «دعوة» ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له» رواه الترمذي والنسائي والإمام أحمد.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدًا يكون من بعده نبياً، وقد ذكرت قصته في أول سورة مريم، وفي سورة آل عمران. ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي خفية عن قومه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي لا ولد لي، ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة.

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي امرأته، كانت عاقراً لا تلد فولدت وقيل: كان في لسانها طول، فأصلحها الله، وقيل: كان في خلقها شيء فأصلحها الله والأظهر من السياق الأول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا﴾ رغباً فيما عندنا، ورهباً مما عندنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ أي مصدقين بما أنزل الله، أو مؤمنين حقاً، أو خائفين، أو الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً، أو ﴿خَلِيعِينَ﴾ أي متواضعين، أو متذللين لله عز وجل، وكل هذه الأقوال متقاربة.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ زُرْحَاكِ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

هكذا يذكر الله تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم، لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم، وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني مريم كما قال في سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ زُرْحَاكِ﴾ [التحريم: 12] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وهذا كقوله: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: 21] ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ الجن والإنس، أي أن هذه شريعتكم التي بينت لكم، ووضحت لكم.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: دينكم دين واحد، وستتم سنة واحدة، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ وفي الحديث «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد» يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48].

﴿وَنَقُطِعْ أَمْرَهُمْ بِالنَّهْيِ كُلِّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَنَقُطِعْ أَمْرَهُمْ بِالنَّهْيِ﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم، ومكذب. ولهذا قال ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30] أي لا يكفر عمله، بل يشكر، فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه شيء منه.

﴿وَحَرَّمَ عَلَيَّ قَرِيْبَهُ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيَّ قَرِيْبَهُ﴾ قال ابن عباس يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وقيل ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يتوبون، والقول الأول أظهر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ﴾ هم من سلالة آدم، بل هم من نسل نوح أيضاً، تركوا من وراء

السد الذي بناه ذو القرنين ﴿وَهُمْ مِنْ كَلْبٍ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد، والحدب هو المرتفع من الأرض، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿وَلَا يَبِيْئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: 14] هذا إخبار عالم ما كان، وما يكون، الذي يعلم غيب السماوات والأرض، لا إله إلا هو.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوَلْنَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧)

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزفت الساعة، واقتربت، فإذا كانت وقعت قال الكافرون: هذا يوم عسر، ولهذا قال ﴿فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يُنْوَلْنَ﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ (٩٨)

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ أي وقودها، يعني كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، أو حصب جهنم، شجر جهنم، ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ أي داخلون.

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩)

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها ﴿وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشِهيقٌ﴾ [مود: 106] والزفير خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (١١٢)

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي حريقها في الأجساد ﴿وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ

تُوعَدُونَ﴾ (١١٣)

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذلك الموت، أو هو النفخة في الصور ﴿وَتَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي فأملوا ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا

كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١١٤)

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ روى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماوات يمينه» والمراد بالسجل الكتاب، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم، وهو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١١٥)

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: 55] الزبور: التوراة والإنجيل والتران، وقال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال آخرون: الزبور الذي أنزل على داود، أو الذكر: التوراة، وعن ابن عباس: الذكر: القرآن. ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ عن ابن عباس قال: أرض الجنة.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ (١١٦)

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أي أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَادُونَ الْقَرَارَ ﴿١٩﴾﴾ [إبراهيم: 28، 29].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي متبعون على ذلك، مستسلمون له، متقادون له.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَآذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِن أَدْرِي أَقْرَبُ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ ءَآذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي أعلمتكم أنني حرب لكم كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: 41]. ﴿وَإِن أَدْرِي أَقْرَبُ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي أن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد، وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في إجهارهم وإسرارهم، وسيجزئهم على ذلك القليل والجليل.

﴿وَإِن أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَإِن أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين، قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى.

﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كانت الأنبياء ﷺ يقولون ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الاعراف: 89] وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ﴿رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.